المبحث الرابع

القضاء والقدر فى القرآن والسنَّة

مقدمة: بعد أن فرغنا من معرفة آراء مختلفة، اهتمت بالبحث فى مشكلة القضاء والقدر! الفرق الإسلامية: الجبرية – المعتزلة – الأشاعرة، الفيلسوفين الإسلاميين: الغزالى وابن رشد؛ فها نحن الآن، سوف نضع أنفسنا أمام هذا النَّبْع الصافى .. أمام الأصل، لكى يستقى كلٌّ منا، مفهومه النقى، لهذه المشكلة العقائديَّةَ الهامَّة ...

فَلْنَضَعْ أمامنا مباشرةً، مشكلة القضاء والقدر، كما فى نصوص الشريعة الإسلامية من القرآن الكريم والسنَّة الشريفة؛ ونتَفحَّصَها بقلب سليم، وعقل واع، لكى نستطيع أن نحكم على الآراء السابقة من خلالها؛ ونحاول الوصول إلى المفهوم الصحيح لهذه المشكلة.

وسوف يتم عرض الآيات القرآنية الخالدة، والأحاديث النبوية الشريفة المختارة، أولاً متتالية دون فواصل بينها – من تفسيرات أو تحليلات أو غيره. وذلك حتى يكون لها وَقْع قوى خالص فى نفس الإنسان متفكراً فى معانيها، تفكيراً ذاتيا، مبدئيًّا؛ محاولا تفحُّصها بوعى وإيمان. وحتى تَتَهَيَّأ النفس للتفسيرات والتحليلات، التى تأتى بعد ذلك، وبذلك يمكننا أن نتعمَّق ونتوصَّل إلى معانى خالصة واضحة .. لهذه المشكلة.

أولا: القضاء والقدر فى القرآن الكريم:

(أ) – نصوص الآيات القرآنية – قال الله تعالى فى كتابه العزيز:

١ – ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [الأنفال: ٥٠ – ٥١]

٢ – وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]

٣ – وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]

٤ – وقال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

٥ – وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠]

٦ – وقال البارى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الانعام: ١٠٧]

٧ – وقال الخالق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

٨ – وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]

٩ – وقال الخالق: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]

١٠ – وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]

١١ – وقال الحق: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

١٢ – وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]

١٣ – وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

١٤ – وقال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [ابراهيم: ٢٧]

١٥ – ويقول تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]

١٦ – وقال تعالى فى كتابه العزيز فى مجال ذكر أمر سيدنا يعقوب وابنه سيدنا يوسف وباقى أبنائه: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٦٦ – ٦٨]

(ب) – تفسير ومناقشة وتحليل الآيات القرآنية:

«إننا حينما نحاول معرفة معنى «القضاء والقدر» عن طريق الفَهْم المباشر للآيات القرآنية السابق ذكرها؛ فإننا نجد أن المفتاح فى ذلك، يرجع إلى «العلم الإلهى» فالله عليم .. ومحيط بكل شئ فى الوجود . وهذا يدعونا إلى التدبُّر فى معانى تلك الآيات الخالدة، من هذا المُنْطَلَقَ والنفاذ إلى أعماقها .. وليس

الاقتصار على المعنى الظاهرى لها. ذلك أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، يخاطبان عقولنا .. وليس حواسَّنا ومظاهرنا.

لذا .. يجب إعْمالَ الفكر .. للوَعْى بما فيهما، بالقدر الذى وضَعَهُ الله فى العقل الإنسانى، من القدرة على الوَعْى والإدراك. وسنسير على هذا الطريق إن شاء الله .

فإذا ما أَمْعَنَّا الفكر، فى تلك الآيات؛ ؛ لَوَجَدْنا أننا – من خلال ضرورة الْتزامنا بنظرية الثواب والعقاب – ننتهى إلى أن الإنسان، مسؤولٌ تمامًا، عن كل أفعاله الحرَّة التى يأتيها بمحض إرادته الواعية. وهذا أمر لا يختلف عليه أى عاقل.

فإذا ما نظرنا من خلال هذا المفهوم – بالإضافة إلى مفهوم العلم الإلهى القديم؛ إلى تلك الآيات التى ظاهرها الإجبار؛ لاسْتَطعْنا فَهْم معناها الحقيقى.

ذلك أننا نجد أمامنا، الدائرة الكبرى للعلم الإلهى. فالله يعلم بعِلْمه الأزلىّ القديم المحيط، . كل تلك الأفعال، التى سوف يَعْمَلُها الإنسان .. خلال فترة حياته كلها إنْ خيراً وإن شرًّا؛ بما وهبه الله من إمكانيات الحياة – وإن ذلك على الله يسير. فهو يعلم بعلمه .. ما سوف يَكُونُه أى إنسان، خلال فترة حياته؛ ويعلم مصيره فى النهاية، عندما تتم كل أعماله .. بموته. أشقِىٌّ أم سعيد. أى أنه يعلم تصرفات الإنسان الحرَّة التى سيفعلها بمحض إرادته، لأنه منحه الإرادة التى يكون بها حرًّا فى تحقيق أفعاله. إن « علم الواجب (أى الله) محيط بما يقع من الإنسان بإرادته .. وبأنَّ عملَ كذا يصدر فى وقت كذا .. وهو خير يُثابُ عليه، وأنَّ عملاً آخر شرٌّ يُعاقَبُ عليه عقاب الشر والأعمال فى جميع الأحوال حاصلةٌ عن الكسب والاختيار. وكَوْن ما فى العلم يقع لا محالة .. إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدَّل »[1].

---

(١) الشيخ محمد عبده - رسالة التوحيد ص ٤٩ مطبعة محمد صبيح الأزهر - القاهرة سنة ١٩٦٥م.

هذا هو ما قَدَّره الله منذ الأزل، على النوع الإنسانى .. وهذا هو القضاء والقدر بالنسبة لمكتسبات الإنسان الحرَّة، التى يكون فيها الإنسان مُخَيَّراً. فهو مَبْنِيٌّ على العلم الإلهى الأزلى السابق الشامل. أما القضاء والقدر – فى جانب آخر؛ فإن الإنسان فيه، يكون سَلْبيًّا أو – بمعني آخر – يكون مُسيَّراً .. مُجْبَراً، تَقِفُ عنده إرادته عاجزة؛ لأنها – مع حُرِّيتها – إرادة محدودة، وليست مُطلقة. فهذه الإرادة لا تستطيع أن توجد نفسها، أو أن تمنع الموت، أو أن تُغيرَّ من شكل أى إنسان أو من صوته أو لونه مثلاً، أو تمنع الكوارث التى تقع. فهى إرادة قاصرة – لأنها إرادة مخلوقة .. والذى خلقها هو صاحب الإرادة العظمى .. هو الله؛ الذى يُقدِّر عليه كل هذه الأحوال .. قضاءً جبريًا.

فهذا الجانب الأخير، من القضاء والقدر، واضحٌ أَنْ ليس للإنسان أى تدخُّلٌ فيه فالموت والحياة .. والأمراض والكوارث .. إلخ؛ ليست مكتسبات إنسانية.

وحينما ننتقلُ من هذا المفهوم العام، إلى محاولة مناقشة وتفسير الآيات القرآنية الحكيمة السابقة، فى ضوء هذا المفهوم؛ فإن هذا المفهوم العام، سيجد مكانًا ثابتًا فى نفوسنا.

١ – فحينما يقول الله سبحانه: ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد: ٨] فإن المقدار هنا، هو التقدير. وهو بالنسبة للأشياء المكتسبة إنسانيًّا؛ عبارة عن تدقيق ومعرفة دقيقة. أى علم أزلى قديم من الله، بما سيكسبُه الإنسان، بإرادته الحرَّة المحدَّدَة بحدود لا تتعدَّاها. ويكون هذا التقدير، بالنسبة للأشياء الأخرى، الغير مُكتسبة إنسانيا .. حسابًا دقيقًا لتنظيم كل أشياء الوجود أو الكون. لا شئ يتقدم على آخر، لا يتضارب أى فلك مع فلك آخر.

﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس: ٤٠] وكذلك .. فإن خَلْق آدم .. بقَدْر، وتزايُد ذريته بقَدْر، وخَلْق أو موت أى شئ فى الكون .. بقَدْر محدَّد، كل هذا يتم فى أوقات

مُحدَّدة، قدَّرَها الله فى كتابه القديم .. قَبْل خَلْق الكون بكل ما فيه «والمقدار» هو أساس النظام فى الوجود [١].

(فكل شئ عنده بمقدار) دقيق – لَوْ زاد أو قلَّ أو أبطأ أو أَسْرَع .. لا نَهْدَمَ هذا النظام العجيب، لهذا الكون الشاسع، الذى خلقه الله تعالى بحكمته وتقديره .. إلى أجله المعلوم، الذى حَّدده الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [فاطر: ٤١]

ويقول ابن كثير فى تفسيره: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ أى بأجل، حَفِظَ أرزاق خَلْقه وآجالهم وجَعَلَ لذلك أجلاً معلومًا. وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه أن إبنًا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره فبعث إليها يقول «إن لله ما أَخَذَ وله ما أَعْطى، وكل شئ عنده بأجل مُسمَّى؛ فَمُرْها فَلْتَصْبر ولْتحتسب» [٢] ذلك أن هذا قَدَر جبرى، مُقدَّر من لدن الله تعالى.

٢ – ومن خلال الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة؛ نجد أن النوع الأول، وهو مُكْتَسبات الإنسان الحرَّة وعلْمُ الله بها علمًا أزليًّا قبل أن يكتسبها الإنسان فى الواقع؛ فيه حساب وعقاب للإنسان. وهذا يدل على عدم الجبرية فى الأفعال الإنسانية، لأن الله تعالى، لم يتدخَّل ليُجبَر أى إنسان على فعل مُعيَّن وهذا معناه – كما يقول ابن حجر العسقلانى .. «أن كلَ شئ لا يقع فى الوجود إلا وقد سَبَقَ به علم الله ومشيئته، وإنما جعلهما فى الحديث غايةً لذلك للإشارة إلى أن أفعالنا

---

(١) وقد وجدنا بعض الفلاسفة فى العصر الحديث، وخاصة «ديكارت» يريدون أن يخضعوا كل شئ فى الوجود للرياضيات – أى المقادير – حتى اللغة والمعانى. كما نجد فى هذا العصر .. الثورة الهائلة فى نُظُم الحاسبات الإلكترونية، مثل الكمبيوتر والأنترنت وغيرهما – التى تمدنا بقياسات دقيقة. وأعتقد أن هذا الاتجاه سليمًا، لأنه يتفق مع هذا التوجيه الكريم، الذى لم يَنتبهْ إليه الناس؛ حتى ساقَتْهُم فطرتُهُم إليه .. بطريقة طبيعية.

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم م ٢ ص ٤٨٤.

وإن كانت معلومةً لنا ومُرادةً منَّا .. فلا تقع مع ذلك منا إلاَّ بمشيئة الله، وهذا ما ذكره طاوس مرفوعا وموقوفًا مُطابقًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (١). ويؤكد ابن كثير ذلك المعنى، ويقول أنه « يُستَدَلُّ بهذه الآية الكريمة على إثبات قَدَرَ الله السابق لخَلْقه، وهو علْمُهُ الأشياء قبل كَوْنها وكتابته لها قبل تبرُّمها » (٢). ويقول الله سبحانه: ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ** ﴾ [القمر: ٥٣]

أما النوع الثانى .. فإننا نلاحظ جميعا، أنه ليس عليه أى ثواب أو عقاب. فلا يُعاقَبُ إنسان لأنه يموت، أو لأن لونه أسود أو لأن كارثة حدثَتْ له، ولا يُثابُ .. لأن لونه أبيض – مثلا – أو لأنه وُلِدَ ووُجِدَ فى الحياة. وهذا ما يعبِّر عنه (حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له « واعلم أن الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يضرُّوك .. ») (٣).

٣ – وإذا رجعنا إلى الآيات الكريمة، فإننا حينما ننظر ونتدبَّر الآيتَيْن الكريمتين، اللتين يقول الله تعالى فيهما: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠] فإننا – لأوَّل وهلة، نظن أنهما تحملان معنى الإجبار. لذلك فإن الوصول إلى الفهم الحقيقى لهما ولأمثالهما من الآيات القرآنية الحكيمة، يحتاج إلى تعمُّق مؤمن مُخلص. ومن هنا فإنه يمكن القَوْل، أن الله سبحانه، يملك القدرة والجبروت والإرادة كلها، التى تجعله يشاء فيكون كل الناس مُهتدَين ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ يا محمد لأذنَ لأهل

---

(١) العسقلانى – أحمد بن على بن حجر – فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١١ ص ٥٨٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١ – ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م.

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن م ٤ – ص ٢٦٩.

(٣) عن المرجع السابق: م ٤ ص ٢٧٠.

الأرض كلهم فى الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم .. ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى»[1].

وإذا أَتَيْنا إلى الجزء الآخر من الآية الكريمة؛ فإنه تعالى يدعو الرسول ﷺ، ألاَّ يُكْرِهُ الناس، بل يتركهم لإراداتهم الحرَّة .. لماذا ..؟ لأنه سبحانه قَرَّرَ أَمْرًا ولا رادَّ لأمره وقراره .. ولا بُدَّ أن يستمر هذا القرار. قَرَّرَ أن يُعطى للإنسان العقل والإرادة والحريَّة .. ثم يرى نتيجة هذه النِّعَم .. أَيَشْكُرُ أم يكفر ..؟ وذلك بدون إكراه حتى يتبيَّن له سبحانه نتائج خلقه، والله يقول: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ هذه هى الحرِّية .. هذه هى الحياة مبسوطةً أمام كل إنسان .. لكى يختار، وكفى بالله بعد ذلك حسيبًا.

والآية الثانية التي تلي الآية السابق ذكرها، تدل سطحيًّا على الإجبار الإلهى ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ولكننا إذا قَسَّمناها إلى جُزْءَيْن؛ نجد أن هؤلاء الذين لا يعقلون – في نهاية الآية – هم الذين لا يأذَنُ الله لهم بأن يدخلوا دائرة الإيمان – فى أول الآية. ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ فقد كُتبَ عليهم الكفر، نتيجة عدم استخدامهم عقولهم فى طريق سليم. أما هؤلاء الذين أَذنَ الله لهم أن يكونوا مؤمنين، فهم الذين يكونون عكس ذلك – أى الذين يعقلون، فى مُقابل الذين لا يعقلون. فالذين يعقلون، يأذَنُ الله لهم بالدخُول تحت زمرة المؤمنين الناجين. أما الذين لا يعقلون، فهم الذين لا يرضى عنهم ولا يأذن لهم الله بالدخول تحت نطاق هذه الزمرة المؤمنة الناجية. أليس الأمر كله هنا – يتوقف على التصرف العقلى الحر للإنسان ..؟ بعيدًا عن الإجبار ..؟ وإذا ذهبنا إلى ابن كثير، فى تفسيره نَجدُهُ يقول: ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلاَّ بإذن الله ويجعلْ الرجس** ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ **على الذين لا يعقلون** ﴾ أى حجج الله وأدلَّته وهو العادل فى كل ذلك فى هداية من هدى وإضلال من ضلَّ»[2].

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ ص ٤١٤ – دار الحديث – القاهرة ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق: ٤١٥.

٤ – والآية الكريمة، التى يقول الخالق سبحانه فيها: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٢٢]

هذه الآية الكريمة، تدل – إذا ما نظرنا إليها بطريقة سطحيَّة وبدون تعمُّق؛ على أن كل المصائب التى تصيب الإنسان، هى قضاء وقدر إجبارى من الله لأنها مُسجَّلة فى الكتاب – أى اللوح المحفوظ – قبل أن يُخْلَق الخَلْق ولكن الذى تؤكده الآية أولاً، هو مفهوم العلم الإلهى؛ الذى يحيط بما يُصيب أى إنسان، سواء نتيجة تصرفاته ومكتسباته، أو نتيجة حتمية القضاء والقدر الإلهى فكل ذلك فى كتاب أمين فى اللوح المحفوظ، من قَبْل أن تحدث فعلاً فى الواقع. أى من قبل أن يَبْرأها الله تعالى.

ويعبِّر ابن كثير عن هذين النوعين من القضاء والقدر بقوله عن قتادة: «قال قتادة ما أصاب من مصيبة فى الأرض – هى السنون يعنى الجَدْب ﴿ **وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ يقول الأوجاع والأمراض [كما يقول إن] هذه الآية الكريمة العظيمة أدلّ دليل على القدريَّة نفاة العلم السابق قَبَّحَهُم الله .. وقوله تعالى ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ أى أن علمه تعالى الأشياء قَبْل كَوْنها وكتابته لها طِبْق ما يوجد فى حينها سهل على الله عز وجل .. لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون»(١).

٥ – ويمكن توضيح هذه المصائب – المذكورة فى الآية السابقة؛ بتحليل وتفسير آية أخرى، يقول الله تعالى فيها: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ففيها يتضح أن المصائب قسمان:

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م٤ ص ٣١٥ .

١ – قسم من الله عز وجل. وهذا ليس للإنسان فيه أى تدخُّل، ولا ذنب عليه أدَّى به إلى هذه المصائب مثل الموت أو المرض أو الفقر أو الكوارث.. إلخ.

٢ – أمَّا القسم الثانى فهى المصائب التى تأتى عن طريق الإنسان نفسه، نتيجة أعماله الخاطئة مثل الهزيمة التى حدثَتْ للمسلمين فى غزوة أُحُد، عندما لم يُطيعوا أمر قائدهم فى الحرب .. ﷺ ومثل الفشل الذى يصيب الإنسان، عندما لم يبذل الجهد المطلوب فى أى عمل لذا فإن الله – فى هذه الآية، يخاطب المسلمين عندما لم يحالفهم التوفيق فى إحدى الغزوات فهذه المصيبة التى أصابتْهُم، ليست من عند الله أى ليست من النوع الأول الجبرى، ولكنها من عند أنفسهم، وهم مُسَبِّبوها ومُكتَسبوها، نتيجة تصرفاتهم الخاطئة، وعصيانهم لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عند أَنفُسِكُمْ﴾.

وقال المفسرون أن سبب نزول هذه الآية؛ هو المصيبة التى أصابت المسلمين «وهي القَتلى الذين قُتلوا منهم يوم أحُد، والجرحى الذين جُرحوا منهم بأحُد، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفرًا» (١)

وكان المسلمون قد أصابوا الكفار يوم غزوة بدر، بضعف هذا العدد. أى «قد أصبتُم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مِثْلَيْ هذه المصيبة، التى أصابوا هم منكم، وهى المصيبة التى أصابها المسلمون من المشركين ببدر وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين» (٢). ومع ذلك – فإنهم حينما أصابتهم هذه المصيبة تعجَّبوا، وقالوا أنَّى هذا .. «ومن أين أصابنا هذا الذى أصابنا ...؟ قُلْ يا محمد للمؤمنين بك منّ أصحابك: هو من عند أنفسكم [كيف ..؟] بخلافكم على نبى الله ﷺ إذْ أشار عليكم بتَرك الخروج إلى عدوكم والإصحار لهم، حتى

(١، ٢) الطبرى – أبى جعفر بن جرير – جامع البيان فى تفسير القرآن م ٤ ص ١٠٨ – دار الحديث – القاهرة – ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.

يدخلوا عليكم مدينتكم ويصيروا بين آطامكم فَأَبَيتُم ذلك عليه، وقُلتُم: اخرج بنا إليهم حتى نَصْحَرَ لهم فنُقاتِلَهُم خارج المدينة» [١] فحدث لكم ما حدث. كما ذكر «القرطبى» سببًا آخر لهذه المصيبة، هو «اختيارهم الفداء يوم بدر على القَتْل، وقد قِيلَ لهم: إن فادَيْتُم الأسارى قُتِلَ منكم على عِدَّتِهم» [٢] وهذا قول ضعيف.

إذًا .. «فى هذه المواجهة، يجد المؤمنون عتابًا رقيقًا من الله، وَعوْدًا باللائمة عليهم فيما وقَع لهم .. فإذا كان ثمة خلل فى جماعة المسلمين مَكَّنَ لعدوهم أن ينال منهم ما نال. فذلك الخَلل، إنما هو فى ذات أنفسهم .. ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ أى بما أَحْدَثْتُم فى هذا اليوم من أمور» [٣].

وقد حدث هذا بإذن الله – كما جاء فى الآية التالية: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٦٦] أى بأمره وقراره الذى قَرَّرَ فيه عقاب العاصين. وهناك سبب حقيقى آخر لهذه المصيبة التى حدثت للمسلمين فى هذه الغزوة، ذكره الله فى هذه الآية هو، تمحيص المؤمنين واختيارهم عن طريق الجهاد. وذلك فى قوله تعالى ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى من غير المؤمنين.

٦ – ومع أن ما أصاب المسلمين يوم أُحُد – كما تبين من تفسير الآية الكريمة السابقة؛ كان بسبب، ما أكتسبوه من مخالفات – أو بمعنى آخر – بسبب ذنوبهم التى ارتكبوها؛ فإن ما حدث، كان مَقْضِيٌّ به من الله عليهم، بسبب أفعالهم.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – المجلد الثالث – الجزء الرابع – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط ١ – ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

(٣) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – الكتاب الثانى – الجزء الثالث والرابع – دار الفكر العربى ص ٣١٩ – ٣٢٠.

لكن هناك نوع آخر من القضاء والقدر، يتَّصف بالجبريَّة – أى لا يكون بسبب أفعال العباد، بل يكون رغما عنهم وذلك لحكمة الله تعالى وتقديره فى هذا الكون. فقد يكون لتمحيص واختبار إيمان المسلمين .. أو إعداداً للجهاد، وقد يكون إنذاراً أو تخويفًا ... إلخ.

وهذا يتبين من تفسير الآية الكريمة، التى يقول الله تعالى فيها: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ٥١].

وإذا كان الظاهر من هذه الآية الكريمة، أنها تقوم على القضاء والقدر الإجبارى ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾؛ لكن بعد الفحص والتعمُّق؛ نجد أن هذا الذى يُصيبنا، والذى كُتِبَ عند الله سبحانه فى اللوح المحفوظ منذ الأزل، نوعان: النوع الأول .. هو القضاء الجبرى مثل الأمراض والكوارث والموت .. إلخ، وكذلك أى شئ يصيب الإنسان رغمًا عنه. أما النوع الثانى .. فهو قضاء وقَدَر اختيارى.، أى باختيار الإنسان .. ومُتَرتِّبٌ على أعماله، فإنَّ كانت خيراً كانت النتيجة خيراً .. ولا يصيبه إلاَّ ما فيه الخير، أمَّا إذا كانت سيئة .. فإن النتيجة تكون سيئة .. ويُصابُ بأشياء سيئة .. مثل الفشل فى حرب أو امتحان أو تجـــارة.

وكما سبق القول؛ فإن الله سبحانه يعلم علمًا أزليا بما سيحدث من أى إنسان طوال حياته، ويُكتَبُ ذلك فى اللوح المحفوظ .. ويصبح قضاءً وقدراً .. مُسجَّلاً فى الكتاب الإلهى منذ الأزل.

يقول النيسابورى فى حاشيته على شرح الطبرى: «قُلْ يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلَّفوا عنك [أى فى الحرب]، لن يصيبنا أيها المرتابون فى دينهم إلاَّ ما كتَبَ الله لنا فى اللوح المحفوظ وقضاه علينا »[1]. ويقول الطبرى: «إذا عَلِمَ

---

(١) الطبرى – جامع البيان – من حاشية النيسابورى – م ٦ جـ ١٠ ص ١٠٥.

الإنسان أن الذى وقع امتنع أن لا يقع، لأن خلاف معلوم الله ومقدوره مُحال، زالت عنه منازعة النفس، وهانت عليه المصائب » [1]. ويقول ابن كثير: « ... ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أى نحن تحت مشيئته وقَدَره » . إن هذا النوع من القضاء والقدر الجبرى، لا يسأَلُ فيه الله تعالى عمَّا يفعل فالْمُلْكُ مُلْكُه، ولا رادَّ لقضائه ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

« والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به فى النهاية، فمهما يصيبهم من شدَّة، ومهما يُلاقوا من ابتلاء، فهو إعداد للنصر الموعود، لينالِه المؤمنون عن بيِّنة وبعد تمحيص ... والاعتقاد بِقدر الله، والتوكُّل الكامل على الله، لا ينفيان اتخاذ القدَّة بما فى الطوق [أى العمل] فذلك أمر الله الصريح: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ وما يتَّكِلُ على الله حق الإتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لايدرك سنة الله الجارية التى لا تُحابى أحداً، ولا تراعى خاطر إنسان! .. » [2].

٧ – أمَّا الآية الكريمة، التى يقول فيها الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦] ؛ فإنها من نوع القضاء الجبرى، ويدخل فيما يسمى « الجبرية الكونية » وهى من السنن الإلهية التى يقدِّرُها الله فى الكون. فتصوير الله للإنسان فى الأرحام .. حيث يصوِّرُه، إما ذكراً أو أنثى .. ذو لون معين .. مقاييس مُحدَّدة لأعضاء الجسم .. عيون ذو لون معين .. تقاسيم الوجه .. الصوت؛ كل هذه الأمور، يُصوِّرُها الله عزَّ وجلَّ فى الأرحام ولا دَخْلَ لنا فيها فهى قضاء خالص؛ لذا فليس فيها حساب، لأنها ليست مكتسبات إنسانية.

---

(١) المرجع السابق – جامع البيان للطبرى – ص ١٠١.

(٢) سيد قطب – فى ظلال القرآن – المجلد الثالث ص ١٦٦٤ – سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م – دار الشروق – القاهرة.

ونجد المفسرين قد أجمعوا، على أن هذه الآية الكريمة، تدلُّ على القضاء الجبرى. فالطبرى يقول: «يعنى بذلك جَلَّ ثناؤه الله الذى يصوركم فيجعلكم صُوَّرًا أشباحًا فى أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحَبَّ، فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر. يُعَرِّفُ عباده بذلك، أن جميع ما اشتملتْ عليه أرحام النساء مِمَّنْ صَوَّرَه وخَلَقَه» (١).

ويقول القرطبى كذلك: «هذه الآية تعظيم لله تعالى.. قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعنى من حُسْنٍ وَقُبْح وسواد وبياض وطُول وقِصَر وسلامة وعاهة إلى غير ذلك» (٢).

ويؤكد ابن كثير على نفس المعنى، فى «تفسير القرآن العظيم» (٣).

٨ - ويقول الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]

هذه الآية الكريمة، تَنْفى تمامًا، أى نوع من الجبر، الذى يبدو ظاهرًا فى بعض الآيات الأخرى أو الأحاديث النبوية.. التى نحن بصدد تفسيرها وتحليلها. ففى هذه الآية، يأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ؛ بعدم إكراه أى إنسان، على الدخول فى الدين الإسلامى.. وذلك بعد أن قام ببيان مفهوم هذا الدين الحنيف.. وأصبح واضحًا أمام الجميع، طريق الغىّ والضلال.. وطريق الرشاد والنجاة. فَلْيُتْرَكَ الناس بعد ذلك لإراداتهم الحرَّة التى منحهم الله إيَّاها، ووضع فيها صفات الحرية فى الاختيار ثم بعد ذلك، سينالُ كل فرد جزاء أعماله.. سواء خَيِّرة أو شرِّيرة تحت نظام المسؤولية والجزاء.

---

(١) الطبرى - جامع البيان - م٣ - ص ١١٢.

(٢) القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - م ٣ - ص ٦، ٧.

(٣) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ١ - ص ٣٢٥.

وهذه الآية تدعونا إلى أن نُدَقِّق النظر فى الآيات الكريمة الأخرى، التى تبدو فى ظاهرها الإجبار .. حتى نصل إلى حقيقة مفهومها الذى لا بُدَّ أن يكون فى النهاية، بعيدا عن الإجبار الإلهى لأى إنسان على أفعاله .. التى سيُحاسِبَهُ عليها .. وينال الجزاء العادل عنها.

فـ « تحرير ضمير الفرد من الضلال والعَمَى، وفك عقله من الضيق والإظلام، لا يكون إلا بتحرير إرادة الإنسان، وإطلاقها من كل قَهْر أو قَسْر. وأنه لن تَصِحَّ إنسانيَّةُ الإنسان، ولن يكتمل وجوده إلاَّ بالضمير الحرّ والعقل المتحرر ... وقوله تعالى: ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ ... إنما هو تقرير لبيان الحال من أمر الدعوة الإسلامية. إذْ قد استبانَتْ معالمها، وَوَضُحَتْ حدودها، وأن الذى ينظر فى مُقرَّراتها، وفى شواهدها وآياتها ثم لم يجد الهدى ولا يُقْبِل عليه، فلا سبيل إلى هُداه ولا جدوى من إيمانه » (١).

ويقول بعض المفسِّرين، إن هذه الآية، قد نَزَلَتْ فى أبناء الأنصار، الذين كانوا قد تَهوَّدوا أو تَنصَّروا من قَبْل، ولم يَرْضُوا بالدخول فى الدين الإسلامى. ولكن الطبرى يقول فى النهاية، إنها عامَّة، وليست خاصة بقوم أو حالات معينة فمن رَضِىَ بالإسلام حُكْمًا، ودفع الجزية، فهو حُرٌّ فى الدين الذى يريد أن يعتنقه، ولا يُكره على الإسلام. فهؤلاء « نَهى الله تعالى ذكره عن إكراههم على الإسلام، وأنزلَ بالنَّهْى عن ذلك آية يعم حُكمها كل من كان فى مثل معناهم ممن على دين من الأديان التى يجوز أخذ الجزية من أهلها وإقرارهم عليها .. ومعنى قوله لا إكراه فى الدين .. لا يُكْرَهُ أحد فى دين الإسلام عليه » (٢).

حتى الأسرى .. فلا يُكْرَهون على الإسلام، حتى يتبين لهم الرشد من الغىّ ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ**

---

(١) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن ص ٣١٩.

(٢) الطبرى – جامع البيان فى تفسير القرآن م ٣ ص ١٣.

لَهَا﴾. أمَّا «من حادَ عن الرشاد بعد استبانته له، فإلى ربه أمره وهو وليُّ عقوبته في معاده»[1].

لذا نجد ابن كثير يقول، إنه جاء في الصحيح: «عَجِبَ ربك من قوم يُقادون إلى الجنة في السلاسل» يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يُسلمون وتَصلحُ أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة»[2]؛ بعد أن يعرفوا حقيقة هذا الدين.

وهكذا يتبين؛ أنه ليس هناك أي نوع من الإجبار أو الإكراه على اعتناق الإسلام، بل يُتْركُ الناس ليختاروا .. بعد أن وَضُحَ أمامهم الطريقان .. طريق الغي والضلال .. وطريق الرشاد والنجاة.

٩ – يقول الله تعالى: ﴿ **... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ...** ﴾ [النساء: ٧٨ – ٧٩]

هذه من الآيات التي يختلط فهمها على الناس. ففيها ما يدلُّ على الإجبار، وما يدل على الاختيار. فهل يُعتبر هذا تعارضا ..؟ ويبدو ما فيها من الإجبار في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ لكن .. ليس هذا إجباراً أو قهراً أو تعسُّفاً؛ بل هو تصحيحٌ للمفاهيم الخاطئة. فقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ** ﴾؛ هو مخاطبة الله تعالى لنبيِّه محمداً ﷺ .. ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾، سواء الحسنة أو السيئة.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٣

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – دار الحديث – القاهرة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ – ص ٢٩٤.

فالحسنة من الله، التى أصابت الإنسان .. ليست إصَابةً عشواء .. أعطاها الله له دون أن يستحقَّها .. ولكنها نتيجة عمل الإنسان، لأنه قد أطاع الله .. فأثَابَهُ وأعطاه الحسنة. أما السيئة .. فكيف تكون من عند الله .. والله لم يَأمر بها .. بل يأمُرُ بتَرْكِها ..؟ تعليل ذلك. هو أن هذه السيئة .. من عند الله؛ على أساس أن مُرتكبُها نفسه – وكذلك الأعمال التي استخدمها فى الإتْيان بالسيئةَ، هى جميعا من عند الله ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات: ٩٦]. فالأعمال عبارة عن أحداث، خلقها الله فى الوجود .. لكن الذى حوَّلَ هذه الأعمال .. التى خلقها الله كأحداث متنوعة فى الكون .. إلى سيِّئات هو الإنسان. رغم أنها أصلاً من الله – كما أوضحنا.

لذلك يؤكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى، فى الآية التالية فيقول: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾؛ لأنك أنت الذى حوَّلْتَ الأشياء التى هى من عند الله .. إلى سيئات. هنا أَصْبَحْتَ أَنْتَ المسؤول عن السيئة، بعد أن حَوَّلْتَها من أعمال وأحداث عادية – خَلَقَها الله فى الكون مُسخَّرةً لك – حَوَّلْتَها – بإرادتك الحرَّة إلى سيئة .. نهاكَ الله عنها. فالحسنة أَمَرَكَ الله بها .. فهى من عند الله .. أما السيئة؛ فرغم أنها من عند الله .. كأحداث؛ إلاَّ أنَّكَ أنت الذى حَوَّلْتَ الأحداث إلى أن أصبَحَت سيئات. ويقول تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠].

ويقول ابن كثير: « قوله: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ** ﴾ أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد .. ﴿ **يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ** ﴾ أى قحط وجَدْب ونقص فى الثمار والزروع ... ﴿ **يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ** ﴾ أى من قِبَلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك ... فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ أى الجميع بقضاء الله وقَدَرِه، وهو نافذ فى البرِّ والفاجر والمؤمن والكافر ... ثم قال تعالى مُنكِرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقِلَّةَ

فَهْم وعِلْم، وكثرة جهل وظلم ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ » (١).

ويقول القرطبى: « قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ... والخطاب للنبى ﷺ والمراد أمَّته. أى ما أصابكم يا معشر الناس من خِصْب واتساع رزق، فمن تَفضُّل الله عليكم، وما أصابكم من جَدْب وضيق رزق فمن أنفسكم، أى من أجل ذنوبكم وَقَعَ ذلك بكم » (٢). فقد عَصَيْتُم الله بارتكابكم المعاصى؛ وقد قَدَّر سبحانه منذ الأزل، أن مَنْ عمل حسنةً فلنفسه، ومن عمل سيئةً فعليها ..

١٠ - وفى تفسير الآيتين الكريمتين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الانفال: ٥٠ - ٥١]؛ صورة أخرى من صُور الجزاء العادل لله تعالى، وأنه لا يوجد أى نوع من الإجبار فى الأعمال الاختيارية للإنسان. ففى هذا القضاء، يكون الجزاء من جنس العمل. « يقول تعالى ذكره مُخْبِرًا عن قَتْل الملائكة لهؤلاء المشركين الذين قُتلوا ببدر، إنهم يقولون لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ذوقوا عذاب الله الذى يحرقكم. هذا العذاب لكم بما قَدَّمَتْ أيديكم، أى بما كسبَتْ أيديكم من الآثام والأوزار، واجترحْتُم من معاصى الله أيام حياتكم. فذوقوا اليوم العذابَ وفى معادكم عذاب الحريق. وذلك لكم بأن الله ليس بظلام للعبيد لا يُعاقبُ أحدًا من خَلْقه إلاّ بجُرْم اجْتَرَمَه. ولا يعذبه إلا بمعصيته إيَّاه، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه » (٣).

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ١ ص ٥٠١.

(٢) القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - م ٣ - جـ ٥ - ص ١٨٤.

(٣) الطبرى - جامع البيان - م ٦ - ج ١٠ - ص ١٧.

obeikandl.com

فقد «جاء فى الحديث الصحيح ... عن رسول الله ﷺ، أن الله تعالى يقول «يا عبادى إنما هى أعمالكم أُحصيها لكم فَمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

فـ«قوله تعالى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو بيان للمصير الذى صار إليه أولئك المشركون الذين أَذَلَّ الله كبرياءهم فى هذا اليوم، يوم بدر، وهو مصير مشؤوم، يلقى بهم فى سواء الجحيم، حطبًا لجهنم. ووقودًا لسعيرها. وذلك الذى حَلَّ بالمشركين من هوان فى الدنيا، وعذاب فى الآخرة، هو جزاء لما كان منهم، وما قَدَّمَتْ أيديهم من سوء ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾» (٢).

ففى هاتين الآيتين الكريمتين، يتبين بوضوح؛ أن ما يُقَدِّرُه الله على العباد، هو جزاء أعمالهم. فهؤلاء الكافرون. الذين يعذبهم الله تعالى فى المعركة، عن طريق الملائكة الذين يَضْربون وجوههم وأدبارهم؛ وكذلك عن طريق المسلمين الذين يُنازِلُونَهم فى المعركة .. ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبه: ٥٢].

فـ«إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف وإذا وَلَّوْا أدركتهُم الملائكة يضربون أدبارهم ... وهذا السياق وإن كان سببه وقْعة بدر ولكنه عام فى حق كل كافر ولهذا لم يُخصِّصْهُ تعالى بأهل بدر» (٣). لم يصِبْهُم هذا العذاب مُضافًا إليه .. ما ينتظرهم من عذاب الآخرة؛ إلاَّ جزاءَ ما

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن – م ٢ – ص ٣٤٦.

(٢) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – الكتاب الخامس – ج ٩، ١٠ – ص ٦٣٦.

(٣) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ – ص ٣٠٥.

قَدَّمَتْ أيديهم من فساد فى الأرض، وكُفْر بالله الذى أنعم عليهم بالوجود فى هذا الكون .. وبهذه النعَمَ الكبرى التى سَخَّرها لهم. فهذا الذى يُصيبَهم من العذاب، هو نتيجة كُفْرِهم وفسادهم. وإصرارهم على الكفر والفساد. فلا يُعَذِّبُ الله هؤلاء دون سبب .. ولكن أعمالهم هى التى أَرْدَتَهم فى هذا العذاب.

١١ – قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴾ [الأنعام: ١٠٧] هذه الآية الكريمة، تدل فى ظاهرها على الجبريَّة فهى تدل على أن هؤلاء، قد أشركوا بمشيئة الله .. أى أنه هو الذى قدَّر ذلك لهم، فجعلهم مشركين .. لكن حقيقتها غير ذلك وفى تفسير هذه الآية .. يقول ابن كثير: « يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته ... اعلم أن لله حكمة فى إضلالهم [أى المشركين] فإنه لَوْ شاء لهدى الناس كلهم جميعا ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** ﴾ أى بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤهُ ويختاره .. لا يُسْأل عمَّا يفعل وهم يُسْألون » (١).

وبعد هذا التوضيح المختصر، من ابن كثير؛ يظلُّ التساؤُل موجوداً؛ وهو: لماذا لم يَشأ الله سبحانه عدم شركهم ..؟ لماذا شاء أن يشركوا أو أن يكونوا مشركين ...؟ ولماذا لم يشأ أن يكونوا مؤمنين ... والإيمان أفضل من الشِّرْك ..؟.

وتفسير هذه الآية الكريمة وما شابَهَها، لا يكون إلاَّ بالتحليل: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** ﴾ ومن هنا نفهم أن الله شاء عكس ذلك .. أى شاء لهُم الشرك .. وكان من الممكن أن يشاء لهم الإيمان. إذًا يبدو هناك قضاء إجبارى من الله بالشرك على هؤلاء. فلماذا إذًا يُعذَّبون بشركهم .. ما دام الله هو الذى قضى عليهم وقدَّرَ ذلك بطريقة إجبارية ..؟ وبذلك يُصبحُ كفرهم، خارجا عن إرادتهم. ولذلك قال بعض الكفار. ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا**

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ - ص ١٥٥.

مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فيكون ذلك – وتعالى الله علوا كبيرا عمَّا يمكن أن يُقال – ظلمًا. والله سبحانه لا يظلم الناس شيئًا – كما جاء فى كثير من الآيات .. وكما نحس فى حياتنا وحياة العالم. ويقول الله فى حديثه القدسى: « يا عبادى إنى حرَّمْتُ الظلم على نفسى وجَعلْتُه بينكم مُحرَّمًا .. » (١).

إذًا ما هى الحقيقة .. وكيف يُحَلُّ هذا الإشكال العقائدى العقلى ..؟ .. لا يُحَلَّ إلاَّ بالنَّظْرة الكلية الشاملة لهذا الكون .. وَفَوْقَه خالقُه ومُنَظمُهُ.

لذا .. فإنه يمكن القَوْل، أن الله سبحانه؛ لو شاء لما خلق هذا الإنسان؛ ولكن إذا شاءَتْ إرادَتُه وخلقه فعْلاً .. فكانت إرادتُه من الممكن أن يجعله على غير هيئته وصفاته التى هو عليها الآن. فكان من الممكن أن يجعله كباقى الحيوانات .. يأكل ويشرب ويتناسل ويموت – بدون عقل ولا إرادة ولا حرية. لكن مشيئته سبحانه أرادت غير ذلك .. فقد شَاءَتْ أن يخلق إنسانًا ذا جسد متحرك، له صفات جسديَّة مُعَّنة وفوق هذا الجسد عقل .. ويحتوى على إرادة .. وله حرية التصرف بهذا الجسد الذى خلقه الله له. ثم إن الله سبحانه لَمَّا شاء، وخَلَقَ الإنسان هكذا؛ أرادَ أن يُدرِّبَه على استخدام هذه المعطيات، كما أَرادَتْ مشيئتُه – أى فى طريق الخير – فأرسل إليه الرسُل، وأنزل إليه الكتب التى تُرشدُه إلى طريق الصواب ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ – ٢٠٩] لذا جعل بعد ذلك له موعدًا ليحاسبَه على ما أعطاه .. وهل استخدمه كما طلب منه أم لا؛ ثم كان بعد الحساب، الجزاء، حتى لا يتساوى مَنْ أَطَاعَ مع من عَصَى فَيُثَابُ مَنْ أطاع وسار سَيْرًا حَسَنًا، ويُعَاقَبُ مَنْ عَصَى واستكبر وَعاث فى الأرض فسادًا.

إذًا لو شاء الله ما أشرك المشركون وما عَصَى العاصون؛ وذلك بأن كان

---

(١) عن: المرجع السابق م ٢ – ص ٤٠٠ والحديث عن أبى ذر عن النبى ﷺ عن ربه عز وجل.

جعلهم كالحيوانات غير الناطقة أو الجمادات التى لا تعقلُ ولا تُدْرِك .. والتى هى منزوعة الإرادة الحرَّة. لو شاء الله لجعلهم هكذا ..! وحين يكونون كذلك، فإنهم لن يشركوا .. ولن يكونوا مشركين، لأن الحيوانات أو الجمادات لا تُدرك .. وبالتالى .. لا تُحاسَب – وفى نفس الوقت لأنها لا تعمل الشر ولا تعمل الخير، بل هى موجودة بقدرة الله، لاستكمال سُنَّة الحياة فى الأرض .. وفى هذا الكون. فلو شاء الله لجعلهم بدون عقول وبدون إرادات؛ وإنهم حينذاك لن يكونوا مشركين. لذا فإن الله تعالى لم يُردُ أن يجعلهم كذلك، بل شاءَتْ إرادته أن تجعلهم من نوع الإنسان الذى يعقل ويتصرف بعقله وإرادته وكل المعطيات التى وهبها الله له، فى هذا الكون، ليكون خليفةً له فى الأرض. وهذه مِنَّةٌ كبرى .. أن وهبهم الله كل ذلك، وجعلهم من نوع الإنسان الذى فضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

فإذا رجع هؤلاء إلى أنفسهم، وتفكَّروا بما أعطاهم الله من عقل؛ وعرفوا نعمة الله عليهم؛ لرجعوا عن غيِّهم وكفرهم وعنادهم .. الذى جعلهم يُصِرُّون على السَّيْر فى طريق الشيطان – طريق الغِى والضلال؛ حتى أصبحوا مشركين.

لذلك يقول الله تعالى فى نهاية الآية الكريمة، مخاطبًا رسوله محمداً ﷺ ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ «أى حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم» [1]. أى أننا لم نجعلك يا محمد حفيظًا على هؤلاء، تمنعهم من أعمالهم السيئة، التى أَدَّتْ بهم فى النهاية إلى الشِّرْك. ولم نجعلك تجبرهم على أعمال معينة؛ بل تركنا لهم حرية العمل بما أعطيناهم من إمكانيات «﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى موكَّل على أرزاقهم وأمورهم. إنْ عليك إلاَّ البلاغ. كما قال تعالى ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ وقال ﴿ **إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾» [2].

(١، ٢) ابن كثير – تفسير القرآن – ص ١٥٥ م٢.

هذه هى الحرية .. وهذا هو العقل الحر والإرادة الحرة. فإذا جحد الإنسان بعد ذلك وأفسد فى الأرض وأشرك بالله، الذى منحه كل هذه الفضائل؛ فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه، فهو الذى أوقع نفسه فى الشِّرْك وَعلمَ الله ذلك منذ الأزل؛ فشاءت إرادته أن يكون مشركًا .. لا ظُلمًا ولا جبرًا؛ ولكن حسابًا وجزاءً.. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٤].

١٢ – وهذه آية أخرى، من نفس نوع الآية السابقة، الذى يبدو فيها الإجبار؛ وهى التى يقول الله تعالى فيها: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ولكن عن طريق التحليل تتبين الحقيقة.

جاء فى كثير من الآيات القرآنية الحكيمة، أن الله سبحانه، يُضِلُّ من يشاء ويهدى من يشاء ونقول إن هذا القضاء من الله .. أو هذا القَدَر .. أو التقدير، ليس إجبارًا ولا حُكْمًا جَبْريًّا على بعضٍ من الناس، بأن يكونوا ظالمين أو بأن يكونوا ضَالِّين وآخرون يكونون مهتدين كما يظن بعض الناس فالله سبحانه يقول إنه يضل الظالمين .. ولم يَقُلْ أنه يضل الناس. فالناس عمومًا، منهم الظالمون ومنهم الخيِّرون؛ ولكن الله لا يضل إلاَّ الظالمين من الناس ﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** ﴾.

هنا يتبين أول بصيص من الضوء، يدل على عدم الجبرية. فهناك أشخاص لهم صفات معينة. هم الذين يضلهم الله.

إن الذى يشاء الله أن يضلَّه، هو الذى يسير فى طريق الشر والضلال ويُصرُّ على السَّيْر فى هذا الطريق؛ قال تعالى: ﴿ **وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وأما الذى يريد أن يهديه، فإنه هو الذى يسير فى طريق الخير والهدى والرشاد. ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥ – ١٠]. ومما يؤكد ذلك ما جاء فى هذه الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾. هنا وجدنا أن الذى يضله الله، هم الظالمون .. وأَتْبَعَ ذلك بقوله ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾؛ فإن ما يفعله الله بمشيئته، هو ما جاء فى الجزء السابق من الآية؛ وهو إضلال الظالمين، وتثبيت المؤمنين المهتدين. فهذا هو الذى شاءَهُ الله سبحانه .. لأن هؤلاء الضالِّين لا يستحقُّون إلاَّ ذلك؛ فقد أصْبَحَتْ هذه الصفة مُنْطَبِقةً عليهم تمامًا – صفة الظلم. فَهُم من أصَرُّوا على ارتكاب الكبائر والأخطاء والفساد فى الأرض ولا يرتدعون بنصيحة أو توبة. فهؤلاء يُضلُّهم الله لأنه يعلم بِعِلْمِه الأزلى السابق، أنهم سيظلون على حالهم من الظلم إلى نهاية حياتهم، وأنهم لن يرجعوا عن غيِّهم.

وهذا الضلال .. يرجع إلى الدنيا والآخرة. فقد يُضلُّهم الله فى الدنيا، فينالون شيئًا من الجزاء بأن يجعلهم يعيشون فى ضلال وعَمَى .. تائهين لا يعلمون ما يفعلون .. يتخبَّطون فى جوانب الحياة، تحت رحمة ملذَّاتهم أو عاداتهم القبيحة، أو ما تَجُرُّه عليهم أعمالهم السيئة الفاسدة. وقد يضلهم الله – بالإضافة إلى ذلك – فى الآخرة .. وهذا هو الضلال المبين. فيضلهم عن الصراط .. ويضلهم عن طريق الجنة .. ويهديهم إلى طريق النار .. لكى يدخلوها لتلقىِّ العذاب الأليم، بما كانوا يظلمون.

أما الذين آمنوا فيهديهم الله ويثبت أقدامهم فى الدنيا والآخرة. فيُحبِّبُ إليهم الخير، ويجعل للإيمان فى قلوبهم حلاوة واطمئنانًا. وكذلك فإن الله يعلم بعلمه الأزلى السابق، أنهم سيستمرُّون فى أعمالهم الطيبة حتى نهاية حياتهم. وفى الآخرة .. يهديهم إلى طريق الجنة خالدين فيها. يقول ابن كثير: « ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾. قال قتادة ... أما الحياة الدنيا فَيُثبِّتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ فى القبر، وكذا رُوِىَ عن غير واحد من السلف »[1].

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم – م ٢ – ص ٥١٦.

١١م – ونعو: إلى الآية الكريمة، التى أتت فى التحليل السابق، والتى يبين الله تعالى فيها كيف حاول هؤلاء المشركون أن يُبَرِّروا شِرْكَهُم وأعمالهم الفاسدة. وهى: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٨ – ١٤٩]. فهى من الأهمية بأن نعود إليها، ونحاول تحليلها – هى والآية التى تليها؛ لأن البعض من الناس، يتخذون مما فى معناها، مبرِّرًا لأعمالهم الخاطئة ويقولون هذا ما قَدَّرَه الله علينا.

وذلك بقولهم أن ذلك من عند الله – أو بقَدَرِ الله، أو أن هذا هو ما قضاه الله عليهم أو شاءَهُ لهم. ولذلك يقول الله تعالى لهم فى نهاية هذه الآية الكريمة ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ من أين عَلِمتُم أن الله كتب عليكم ذلك أو قدَّره لكم أو شاء لكم ذلك أو ما كيفية هذه الكتابة؟ فإن كان عندكم علم بذلك، « أى بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه (بمعنى أنه هو الذى قَدَّره عليكم) ﴿ **فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ أى فتظهروه وتبيِّنوه وتبرزوه »[١]، وتقولوا من أين أتَيْتُم به.

لكنكم أيها الكافرون، لن تستطيعوا، لأنكم ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ** ﴾ « أى الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿ **وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ** ﴾ تَكْذِبون على الله فيما ادَّعَيْتُموه »[٢]؛ وتغالطون أنفسكم. لذلك قال الله تعالى فى الآية التالية ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾. والحجة البالغة، التى أخرَصَهُم الله بها هى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ فإنهم لن يستطيعوا أن يُجيبوا على هذه الحجة

(١، ٢) ابن كثير – تفسير القرآن – م ٢ – ص ١٧٨.

البالغة التى أنزلها الله على رسوله ﷺ، ليُبلِّغها. ولكن يجب أن يعلموا حقيقة الأمر؛ فإن هذا الذى قَدَّرَه الله لهم، ما هو إلا أعمالهم أحصاها عليهم منذ الأزل، بِعِلْمِهِ الأزليِّ السابق، الذى يعلم به ما سَيكسِبُه أى إنسان طوال حياته – كما سبق توضيحه.

وأيضا .. « ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أى له الحكمة التامَّة والحجة البالغة فى هداية من هَدَى وإضلال من ضَلّ » [1]؛ وذلك بأنه تعالى، يعرف من يسير فى طريق الهُدَى .. ومن يسير فى طريق الضلال. فيهدى من يسير فى طريق الهدى .. ويُضِلُّ من يُصرُّ على السَّيْر فى طريق الضلال « قال الضحاك .. لا حجة لأحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده » [2].

﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ؛ بأن نَزَعَ منكم الإرادة الحرَّة، وجعلكم ملائكة – مثلا، أو أى شئٍ آخر غير الإنسان وقد سبق تحليل ذلك .. فمشيئة الله ليس فيها جبر ولا ظلم.

١٣ – والآيات الآتية، يَظْهَرُ فيها بوضوح .. القضاء والقدر، والرضا به، خَيْره وشَرِّه .. خلوه ومُرِّه؛ وأنه لا يتعارض مع العمل الحر للإنسان. يقول تعالى .. وهو سبحانه فى مجال ذكر أمر سيدنا يعقوب وابنه يوسف وباقى أبنائه: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٦ – ٦٨].

(١، ٢) نفس المرجع السابق.

ففى الجزء الأول من الآية الأولى، ما يدلُّ على العمل الحر للإنسان، الذى من المحتمل أن يكون فيه الخطأ والصواب. فإن يعقوب عليه السلام يقول لأبنائه عندما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم الأصغر، إلى حاكم مصر، وهو العزيز .. يوسف، وهم ما زالوا لا يعرفونه. وذلك لكى يشتروا الحبوب فى أعوام القحط، التى حدثت فى ذلك الحين .. قال ﴿ **لَن أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** ﴾ فهو يحذرهم من ارتكاب السوء كما حدث من قبل مع أخيهم يوسف. أما فى الجزء الثالث من الآية الكريمة، فإن يعقوب يعترف بقضاء الله الجبرى .. إن حدث لابنه هذا، فيقول ﴿ **إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ فهذا يكون – إذا ما حدث – أمرٌ لا دَخْلَ لكم فيه، فهو قضاء إجبارى من الله تعالى .. وأنا أرضي به.

وكذلك فى الآية التالية، عندما قال يعقوب لبنيه ﴿ **لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ هذا أيضا مما يتعلق بأعمال الإنسان الحرَّة. فينصحهم أبوهم بعدم الدخول من باب واحد، زيادةً فى الاحتياط. خوفًا عليهم من أى سوء. وهذا ما يجب على أى إنسان .. أن يحافظ على نفسه وعلى أبنائه، ويُبْعِدَهُم عن مواطن الخطر والسوء، للنجاة من أى مكروه. ولكن يعقوب يتدارك الأمر، ويعرِّفَهم أن ذلك التَحوُّط والأَخْذ بالأسباب، لن يغنى عن وقوع المكروه إن أراد الله ذلك. لأنه فى تلك الحالة، يكون قضاءً وقدراً .. لا مَفرَّ منه .. ولا دَخْلَ للإنسان فيه، فقال ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ ثم بعد ذلك عَرَّفَهُم أنه يرضي بقدر الله على أى وجه من الوجوه، فهو متوكلٌ عليه، ومُفوِّض الأمر كله لله، بعد الأخْذ بالأسباب ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾.

ويؤكد الله سبحانه هذه المعانى كلها في الآية التالية لهاتَيْن الآيَتيْن السابقَتينْ، فيقول: ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ**

اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن أراد الله بهم سوءاً أو أراد بهم خيراً. فالأمر فى النهاية له وحده. وإذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون. إلاَّ أنَّ ذلك، لا يمنع من الأخذ بالأسباب .. والعمل .. ويدخل فى ذلك النُّصْح والتوبة، وغير ذلك من وسائل .. أَمَرَنا الله بها فى كتابه العزيز .. وعلى لسان رسُله الكرام عليهم الصلاة والسلام؛ حتى تكون أعمالنا حسنة وخيرة.

لذلك قال الله تعالى، فى الجزء الأخير من هذه الآية الكريمة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى أن يعقوب عليه السلام، يعلم كل ذلك .. ويعلم أن قضاء الله، لا بُدَّ أن يتحقَّق .. لكنَّ ذلك .. لا يمنع من العمل. فالعمل هو ميزان الشخص، الذى سيحدد مصيره فى النهاية أمَّا ما يحدث له رغمًا عنه – بقضاء الله؛ فلا حساب عليه، ولن يستطيع أحد رَدَّه. ومن القضاءات ما فيه اختبار وبلاء للإنسان، ومنها ما هو قاطع ونهائى. الأول كالإبتلاء بالأمراض والهزائم والكوارث؛ والثانى كالموت.

ويقول ابن كثير: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى تَحلِفُون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تَغْلبَوا كلكم ولا تقدروا على تخليصه .. إنه أمَرَ بنيه لَمَّا جَهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد وَلْيَدخُلوا من أبواب متفرقة. فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب .. إنه خَشِيَ عليهم العين. وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ... وقوله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى إن هذا الاحتراز لا يَرُدُّ قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يُخالف ولا يُمانَع ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا هى دَفْع إصابة العين ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ قال قتادة والثورى .. لذو علم يَعْلَمُه [أى له ولذاته] وقال ابن جرير .. لذو علم

لتعليمنا إياه [أى ليكون مثالاً للناس يحتذونه] ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾»[1].

١٤ – وإذا فحصنا الآية التى يقول فيها الله سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد: ١١] نجد الاكتساب والحرية عند الإنسان واضحَين فى الجزء الأول من الآية. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ فتغيير أحوال القوم من حال إلى حال، مترتب على أعمالهم الحرَّة، التى هى أساسًا، نتيجة ما بأنفسهم .. أى نيَّاتهم. وبعد ذلك نجد أن الله سبحانه، يستطيع بقدرته وجبروته وإحاطته وقهره .. إذا أراد بقوم سوءًا، فلا يمكن لأى شئ، مهما بلغت قوته .. ردَّ ذلك. ويمكن أن يكون ذلك السوء على معنيَيْن:

المعنى الأول: هو من نوع القضاء الجبرى .. أو الجبرية الكونية؛ الذى يحلُّ بالإنسان دون اكتساب كما تقدم، مثل المرض والموت .. إلخ. والمعنى الثانى – هو أنه لا رجوع فى قرار الله سبحانه، لمعاقبة الإنسان .. نتيجة أعماله المكتسبة السيئة. ولن يستطع أى شئ أن يحول دون هذا العقاب. وذلك إمَّا فى الدنيا أو فى الآخرة.

وقد جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة: «قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أَوْحَى الله إلى نبىٍّ من أنبياء بنى إسرائيل، أَنْ قُلْ لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحوَّلون منها إلى معصية الله إلاَّ حَوَّلَ الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون. ثم قال إن تصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾»[2]. وبالتأكيد يكون العكس.

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ – ص ٤٦٦.

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ – ص ٤٨٦.

أى إذا كان أحد فى معصية، وتحوَّل إلى الطاعة؛ حَوَّلَ الله عنه ما يكره إلى ما يحب.

١٥ – وهناك نقطة متصلة بالقضاء والقدر، وهى الاستغفار واللطف الإلهى. ففى الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [التوبة: ١١٣] يتبين أن الدعاء والاستغفار، لن يكون له نتيجة ولا رحمة من الله، ولا لطف بالعَبْد إلاَّ إذا كان العَبْد يسير فعلاً فى طريق الخير. فإذا ما تَردَّى فى بعض الهفوات والأخطاء .. فهذه هى التى يستغفر الله فيها ليتوب عليه. أما مرتكبو الكبائر، والمصُرّون على الأخطاء، والكفار؛ فلا استغفار لهم ولا لطف بهم؛ حتى ولو أتى هذا الاستغفار .. وهذا الدعاء، من النبى ﷺ، أو من المؤمنين الصادقين. فكلٌّ مسؤول عن عمله. ولا لطف ولا رحمة من الله، إلاَّ للسَّائرين فى طريق الإيمان .. طريق الأعمال الخيرِّة، لا الجالسين فى مستنقعات العصيان.

يقول ابن كثير، ناقلاً عن عدد من الرواة .. «لَمَّا حَضَرتَ أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أُميَّة فقال «أى عم، قل لا إله إلاَّ الله – كلمةً أحاج لك بها عند الله عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أميَّة يا أبا طالب .. أترغَبُ عن ملَّة عبد المطلب؟ فقال أنا على ملَّة عبد المطلب. فقال النبى ﷺ «لأَسْتَغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فَنَزَلَتْ ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ (١) فحتىَّ أقرب الناس إلى النبى ﷺ، وأقارب الصحابة الذين آمنوا معه، لا يستطيعون .. ولا يحقُّ لهم أن يستغفروا لأقرب الناس

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن م ٢ ص ٣٧٥.

إليهم .. من الذين ظلموا مشركين. لماذا ..؟ لأن كل إنسان، لا بد أن ينال جزاء عمله الحر، بعد أن تبين أمام الجميع .. طريق الخير وطريق الشر.

فـ« قُربى الدم والنسب إذن لا تُنْشِئُ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم وولاء المؤمن يجب أن يتمخَّض لله الذى عقد معه تلك الصفقة [أى الصفقة بين الله المشترى والمؤمن البائع] وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة»[1].

ثانيا: القضاء والقدر فى الأحاديث النبوية:

وهذه أيضا، بعض الأحاديث النبوية الشريفة، المتعلِّقَة بمشكلة القضاء والقدر – وهى الركن الثانى من الدين – لقراءتها وتَدبُّر معانيها؛ ثم القيام بعرض شروح وتحليلات لها، لاستكمال الفهم وزيادة المعرفة، بجميع جوانب هذه المشكلة.

وسوف نعرض نص الحديث النبوى الشريف، ثم نُتْبِعُه بالشرح والتحليل.

الأحاديث النبوية .. شرح وتحليل:

الحديث الأول:

«عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القَدَر، فنزلَتْ: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٨ – ٤٩][2].

نجد فى هذا الحديث الشريف معنى الجزاء، فلا يدخل الإنسان النار إلا جزاء ما اقترفه من أعمال خاطئة فى حياته الدنيا. فالله سبحانه، لا يخفى عليه شئ من

---

(١) سيد قطب – فى ظلال القرآن – المجلد الثالث – جـ ١١ – ص ١٧١٤ – الطبعة الشرعية ٢٦ سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م – دار الشروق – القاهرة

(٢) الحافظ المنذرى – مختصر صحيح مسلم – ص ٢٤٦ – الدار الكويتية للطباعة والنشر – دولة الكويت طبعة أولى سنة ١٩٦٩م.

أعمال الإنسان أو غيرها من أحداث فعنده كل شئ بمقدار. فالقَدَرُ هنا فى قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾؛ هو التقدير .. أى الحساب الدقيق. فالله يُقدِّرُ عمل العَبْد، ويُعطيه عليه الجزاء الذى يستَحقُّه، ولا يوجَدُ أعْدَلُ من الله تعالى .. لكى يقدِّرُ المخطئ من المصَيب، أو العمل الخاطئ من العمل الصالح.

فلا يُسْحَبُ الإنسان على وجهه، مَسُوقًا إلى النار، إلاَّ جزاء ما ارتكبه من أخطاء فى الحياة الدنيا؛ تلك الأخطاء، التى قدَّرها العزيز الحكيمُ الحكم العَدْل .. الله العلىّ العظيم. وهذا هو القدر، الذى قدَّره الله سبحانه بقدرته التى لا تتناهى، وعلمه المحيط، قبل أن يحدث من الإنسان فهو وحده الذى يحيط بكل شئ علمًا. وهذا هو ما سَجَّله سبحانه فى اللوح المحفوظ منذ الأزل .. ﴿**أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٤] إذًا .. هذا هو نوع القضاء والقدر، المترتِّبُ على أعمال الإنسان فهو علم إلهى قديم، بكل ما سوف يفعله أى إنسان، فى كل تاريخ حياته الدنيوية.

ونجد ابن حجر العسقلانى، يقول فى شرحه: «إن كل شئ لا يقع فى الوجود إلا وقد سَبَقَ به علم الله ومشيئته .. فأفعالنا وإن كانت معلومةً لنا ومرادةً منا، فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله، وهذا ما ذكره طاوس مرفوعًا وموقوفًا مُطابقٌ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (١).

وهنا يتبين لنا، أن مشيئة الله؛ هى وقوع تلك الأعمال التى تقع منا بإرادتنا؛ وقد سبق علم الله بوقوعها. فليس سبق الله بعلمها، بمُلزمٍ لنا بفعلها؛ أو هو قهر وإجبار على فعلها ..

---

(١) العسقلانى – أحمد بن على بن حجر – فتح البارى شرح صحيح البخارى – جـ ١١ – ص ٥٨٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١ – ١٤٢٠ هـ : ١٩٨٩م.

الحديث الثانى:

أما إذا أَتَيْنا إلى الحديث النبوى الشريف الثانى، الذى رُوِىَ عن علىٍّ كرَّمَ الله وجهه، حين قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقَعَدَ وقَعَدْنا حوله ومعه مِخْصَرة (عصا خفيفة) فنكَّسَ فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد .. ما منكم من نفس منفوسة إلاَّ وقد كَتَبَ الله مكانها من الجنة والنار. وإلاَّ وقد كُتِبَتْ شقيَّةً أم سعيدة» قال: فقال رجل: يا رسول الله أَفَلاَ نمكث على كتابنا وندع العمل ..؟ فقال: «مَنْ كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة وَمَنْ كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. فقال: اعملوا فكلٌّ مُيسَّر. أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة. وأمَّا أهل الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ [الليل: ٥ - ١٠] (١).

فالجزء الأول من الحديث هنا، يدل فى ظاهره، على الإجبار. أى أن كل نفس قد سُجِّلَتْ عند الله تعالى، وكُتِبَ مكانها فى الدار الآخرة، سواء فى الجنة أو فى النار. ولذلك سأله أحد الحاضرين، وقال له .. ما دام الأمر كذلك (أَفَلاَ نمكثَ على كتابنا وندع العمل ..؟)، فلا داعى للعمل أو الاكتساب أو العبادة والجهاد .. إلخ، ما دام قدرى لا مَفرَّ منه، وهو مُسجَّل الآن، فى اللوح المحفوظ.

لكن الرسول ﷺ قال له لا .. لا تمكثوا، وَتَدَعُوا العمل بل اعملوا وكافحوا. فكل إنسان مُيَسَّر لكلا الطريقين طريق الخير وطريق الشر؛ وهو لا يعلم ماذا كُتِبَ له فى اللوح المحفوظ، لأنه غيب فى علم الله فقط أو - بمعنى آخر - مُخَيَّر بين هذين الطريقين؛ ويستطيع بإرادته الحرَّة أن يسير فى أىٍّ منهما.

---

(١) الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - ص ٢٤٧.

وسيكون كل إنسان مُيسَّرًا للسَّيْر فى الطريق الذى اختاره، والذى سيحدِّد مصيره فى النهاية – لا يعوقه عائق. وهذا الطريق حتى نهايته، معلوم لدى الله تعالى، بعلمه الأزلى القديم المحيط. وقد قال أحد الصحابة: (إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «إن أول ما خَلَقَ الله القلم ثم قال له اكتُب فجرَى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة») (١).

فإذا كان الله قد عَلِمَ منذ الأزل أن إنسانًا ما، سيسير فى طريق أهل الجنة ويعمل بأعمال أهل الجنة، فسَيكْتُبه قبل أن يُخلَق أو يوجَد فى الكون، فى سجل أهل الجنة. وإذا كان يعلم بعلمه الأزلى، أنه سوف يسير فى طريق أهل النار، فسيكون هذا هو طريق الشقاء، وسَيُكْتَبُ عند الله شقيًّا من أهل النار.

إذًا الأمر كله هنا يتوقف أساسًا على أعمال الإنسان. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ أى من سار فى طرق الخير والصلاح ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ أى نجعل له هذا الطريق سهلاً مُحَبَّبًا. ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ** ﴾ بَخلَ بماله وبصحته وبعقله، ولم يستخدمه فى طريق الخير، واستخدمها فى طريق الشر، واعتبر نفسه غنيًّا بهذه الأشياء التى أعطاه إياها الله، واستغنى بها عن النعيم الأخروى، ونَسِىَ أوامر الله وعبادته. ﴿ **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ هذا الشخص ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ فسيكون أمامه طريق الغواية والهلاك .. والمُتْعة واللذَّة الدنيوية – سهلاً – مُنغمسًا فيه، مفتوحًا أمامه ينهلُ منه بكل ما أوتِىَ من الحياة. فهذا الشخص يكون قد تَرَكَ طريق الخير الموجود والواضح أمامه، وسار فى طريق الشر، الذى سيؤدى به فى النهاية إلى العُسر والشقاء – سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، ثم إلى عذاب النار. لذلك يُكْتَبُ عند الله من أهل الشقاوة، لما يعلمه الله بعلمه الأزلى، من أنه سيسير فى هذا الطريق السَّئ، الذى يؤدى به فى النهاية، إلى ذلك المصير.

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٤ – ص ٢٧٠.

ونجد العسقلانى يقول فى شرحه «فتح البارى»، إن «حاصل السؤال: ألا نترك مَشقَّة العمل فإنَّا سنصير إلى ما قُدِّرَ علينا، وحاصل الجواب: لا مَشقَّة، لأن كل أحد مُيسَّرٌ لما خُلقَ له، وهو يَسيرٌ على من يسَّره الله عليه. قال الطيبى: الجواب من الأسلوب الحكيم، منعهم عن تَرْك العمل وَأَمَرهُم بالتزام ما يجب على العبد من العبوديَّة، وزَجَرَهُم عن التصرف فى الأمور المغيبة.

وفى آخر حديث عمر عن الفريابى «فقال عمر فَفِيمَ العمل؟ فقال: كلٌّ مُيسَّر لما خُلقَ له وأن عمله فى العاجل دليل على مصيره فى الآجل»[1] والإنسان لا يعلم ما كُتبَ له، «بل طوى الله علم الغيب عن خَلْقه وحَجَبَهُمْ عن دَرَكه، كما أخفى عنهم أمر الساعة فلا أحد يعرف متى حين قيامها... وفى أحاديث هذا الباب أن أفعال العباد وإن صَدَرَتْ عنهم لكنها قد سبق علم الله بوقوعها بتقديره»[2].

الحديث الثالث:

أما الحديث الثالث الذى يقول فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجْمَعُ خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون فى ذلك عَلَقَةً مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغةً مثل ذلك. ثم يرسل الله المَلَكَ فينفخ فيه الروح ويؤمَرُ بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقىٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[3].

---

(١) العسقلانى - فتح الباري - ص ٦٠٨ - ٦٠٩. (٢) المرجع السابق: ص ٦٠٩.

(٣) الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - ص ٢٤٨ - ٢٤٩، الأربعون النوويه وشرحها - الإمام محى الدين يحيى بن شرف النووى دار الخلفاء - المنصورة - مصر ط ١ سنة ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م.

ويمكن تقسيم ما أشار إليه هذا الحديث الشريف إلى قسمين: الأول يعبِّر عن القضاء والقدر بنوعَيْه: الجبرى، والمترتب على مكتسبات الإنسان. فالرزق والأجل، من قضاء الله الخالص الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه. إذًا فـ « المراد من كتابة الرزق تقديره قليلاً أوِ كثيرا، وصفته حلالاً أو حرامًا، وبالأجل هل هو طويل أو قصير، وبالعمل هل هو صالح أو فاسد » [١] . أما الأعمال .. فإن الله يكتبها فى سجلهً الأزلى، بناء على العلم الإلهى الأزلى المحيط. فالله يعلم كل الأعمال التى سيكتسبُها الإنسان منذ الأزل، وهى التى ستُحدِّدُ مصيره، إمَّا من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة.

أما القسم الثانى؛ فهو يعود إلى ركن العمل، لأهميته فى تحديد مصير الإنسان. ويمكن تحليل معناه، على أساس « النيَّة » وهى لها شأن عظيم فى مجال الإيمان. فكثير من الأعمال التى تَبْدو خيِّرة .. تكون النيَّةُ فيها غير حسنة. فقد تكون للرياء .. أو لتبادُل المصلحة، أو للوصول إلى هدف دنيوى .. مثل منصب، أو جاه أو غِنَى أو مُتعة .. إلخ. « إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبُها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجَرَ إليه » [٢]. [رواه البخارى ومسلم عن عمر].

فأعمال هذا الإنسان، تكون فى ظاهرها خيِّرة، لكن فى حقيقتها، التى يعلمها الله، غير خيِّرة .. وغير خالصةً لله. لذلك فإن هذا الشخص، تُفْتَضَحُ أعماله فى نهاية حياته، ويُظهرُها الله، فَيُفْصِحُ عن نِيَّته السَّيِّئة، فَتُخْتَتَمُ حياته بهذه الأعمال السيئة، فيكون مصيره النار.

---

(١) العسقلانى - فتح البارى - ص ٥٩٦.

(٢) النووى - الإمام محيى الدين يحيى بن شرف - الأربعون النووية وشرحها - دار الخلفاء - المنصورة - مصر - ط ١ ص ١٣ ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م.

وكذلك يمكن أن يحدث العكس. فيكون هناك شخص، تتَّسِمُ أعماله بالشرّ، ولكنه فى النهاية، يقف مع نفسه، ويتوب ويندم على ما فعل من سيئات، ويُقلِعُ عنها، ويتجه نحو أفْعَال الخير، بنيَّةٍ خالصة لله تعالى؛ فَيُظهرُ الله أعماله الخيِّرة .. وتُخْتَتَمُ حياته بها، فيكون مصيره الجنة. يقول العسقلانى فى شرحه، عن هذا القسم «قوله: (أحدكم أو الرجل لَيَعْمل) (بعمل أهل النار) .. وظاهره أنه يعمل بذلك حقيقة ويُختَمُ له بعكسه، وسيأتى فى حديث سهل بلفظ «لَيَعمَلُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس» وهو محمول على المنافق والمرائى .. قوله: (فيسبق عليه الكتاب .. وفى حديث أنس عند أحمد وصَحَّحه ابن حبان «لا عليكم أن لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يُخْتَمُ له، فإن العامل يعمل زمانا من عمره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحوَّل فيعمل عملاً سيئًا» الحديث وفى حديث عائشة عند أحمد مرفوعًا «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وهو مكتوب فى الكتاب الأول من أهل النار [لعلم الله الأزلى السابق بنيَّته السيئة] فإذا كان قَبْل موته تحوَّلَ فعمِل عمل أهل النار فمات فدخلها» الحديث [1]. أى افتضح أمره وأظهر الله ما فى نيَّته السَيئة. «وأمَّا ما قاله عبد الحق فى [كتاب العاقبة] إن سوء الخاتمة لا يَقَعُ لمن استقام باطنه وصَلُحَ ظاهرُه وإنما يقع لِمَنْ فى طَوِيَّته فساد أو ارتياب. ويكثُر وقوعَه للمُصرِّ على الكبائر والمجترئ على العظائم، فيهجم عليه الموت بغتةً فيصطلمه الشيطان عند تلك الصَّدْمة، فقد يكون ذلك سببًا لسوء الخاتمة» [2].

فَهُنا فى هذا القسم الثانى من الحديث الشريف؛ يكون أمامنا أَمْرانْ هامَّان – هما النية، والتوبة.

فمن كانت أعماله حسنةً، ونيَّته خالصة خيِّرة .. اختُتِمَتْ حياته بالأعمال

---

(١) العسقلانى – فتح البارى – ص ٥٩٦ – ٥٩٧.

(٢) المرجع السابق – ص ٥٩٨.

الطيبة.. وكان من أهل الجنة. وكذلك إذا ما كانت أعماله سيئة .. ولكنه فى النهاية، تَابَ وأَقْلَع عنها، وسار فى طريق الخير بقلب سليم؛ كان من أهل الجنة. أمَّا من كانت نيته سيئة .. ولو كانت أعماله حسنة (مُراءاة ونفاقًا) .. وأظهر الله أعماله السيئة، سافرةً فى نهاية حياته؛ فسيكون مصيره النار. ومعروفٌ أنَّ مَنْ كانت أعماله سيئة طوال حياته، ومات ولم يَتُبْ .. فسَيلْقى نفس المصير.

ويقول النووى. وهو فى نهاية شرحه للأحاديث المتعلقة بالقضاء والقدر: «هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنَّة فى إثبات القدر وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقَدَره خيرها وشَرِّها نَفْعها وضرها .. قال الله تعالى ﴿ **لايُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسئلون** ﴾ فهو مُلكٌ لله تعالى يفعل ما يشاء ولا اعتراض على المالك فى مُلكه وأن الله تعالى لا علَّة لأفعاله .. وفى هذه الأحاديث النَّهْى عن تَرْك العمل والاتكال على ما سبق من القدرَ، بل تجب الأَعْمال والتكاليف التى ورد الشَّرْعُ بها»[1].

وهكذا يتضح أن القضاء والقدر، المدوَّن باللوح المحفوظ منذ الأزل؛ لا ينفى العمل والإجتهاد لتحقيق أوامر الله تعالى والانتهاء عمَّا نَهَى عنه، فنحن لا نعلم ما كُتِبَ لنا .. لذا يجب على الإنسان، ألاَّ يحتجَّ بالقدر فى أعماله السيئة...

* * *

(١) النووى - صحيح مسلم بشرح النووى - جـ ١٥ ص ١٩٦، ١٩٧ - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

التعليـق العـام

بعد كل هذه المناقشات، المتعلقة بجميع أجزاء مشكلة القضاء والقدر؛ يمكن الآن، التحدُّث عن هذه المشكلة، بمفهوم عام. وهذا – بدون شك – مُتعلِّقٌ بكل ما سبق من دراسة فى هذا الموضوع.

فالقضاء والقدر بصفة عامَّة، هو ما ينطبق على الموجودات كلها أى على الوجود بما فيه من نظام وتنسيق، وبما فيه من أنواع مختلفة من المخلوقات .. مثل السماء والأرض، والنجوم والأفلاك والجمادات .. والمياه والحيوانات؛ والإنسان أيضا، فهو .. كجزء من هذا الوجود، يدخل فى نضامِه ونَسَقِه، الذىَ حدَدَه الله له.

أى أن القضاء والقدر الإلهى، قد حَكَمَ بأن توجد كل هذه الأشياء الموجودة الآن فى الكون .. وبأن يوجد أيضا إنسان ويكون لهذا الإنسان عينان وأذنان و .. إلخ. ويكون أيضا له عقل.

ومن هنا نصل إلى جزء هام جدًّا. فالإنسان إذًا، قد قُدِّرَ له، وقُضِىَ من الله سبحانه وتعالى، أن يوجَد فى هذا الكَوْن – لأنه لم يوجِدُ نفسه، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الوجود – وقُدِّرَ له أيضا أن يكون ذا لون معين، أو طول مُحدَّد – أى ذو صفات معينة، تختلف من فرد إلى آخر. ولكن .. بعد هذا – أى بعد أن وجدَ الإنسان فى الكون، ثم وصل إلى درجة معينة من النضج العقلى – فمن خُطَّة الله تعالى فى الكون ، .. وضمن قضائه وقَدَرِه سبحانه؛ أن وضع فى الإنسان عقلاً .. ومنحه إرادة حرَّة ..!

وإلى هنا ينتهى هذا الجزء الإجبارى، الذى هو قضاء الله وقدره .. الذى لا علاقة للإنسان به .. ويسمونه «الجبرية الكونية»؛ ليترك للإنسان – بما وضع له من عقل فوق قمة جسده – جزءاً آخر ليقوم هو به (أى الإنسان) وهذا الجزء

الذى تركه الله للإنسان، هو التصرُّفات والتَحركات الجسديَّة، التى يقوم بها العقل متوافقًا مع الإرادة والجسم، طوال فترة حياة كل إنسان ويمكن أن يُطلَقَ عليه «القضاء والقدر الاختيارى أو الكسبى» لأنه مُترتِّبٌ على ما يكتسبه الإنسان من أعمال، باختياره الحر. ذلك لأن الله قَضَى وقَدَّرَ .. قضاءً جبريًّا من قبل؛ أن يُعطى للإنسان حرية الإرادة، وحرية الاختيار فى الفِعْل.

فالإنسان فى أعماله الاختيارية، سواء كانت عقلية أو جُسمانية؛ قائم بتصريف ما أنعم الله به عليه من المدارك والقُوَى، فيما خُلِقَتْ لأجله. لذلك عرف القوم شُكْر الله على نِعَمِه فقالوا «هو صَرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خُلِقَ لأجله».

ثم بعد ذلك، يرجع الإنسان مرةً أخرى إلى حظيرة القضاء والقدر الجبرى؛ فإنه مُعَرَّضٌ لأن يبتليه الله بالمصائب والشدائد التى تقع عليه رغمًا عنه، مثل موت حبيب أو فقد مال، أو فشل فى امتحان أو حرب أو زواج .. إلخ، رغم ما يكون الإنسان قد بذله من جهد فى مثل هذه الأعمال التى لم يوفَّق فيها فهذه كلها «جبريَّة كونية إنسانية». وقد تكون هذه المصائب والشدائد .. اختياراً وامتحانًا، ليرى الله أيَصْبِر الإنسان أم يعترض؛ فمن صبر فأجره على الله. فالإيمان الحق -كما قال رسول الله ﷺ هو: (أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه) [رواه مسلم] وفى النهاية، فإنه مَقْضِىٌّ على كل ما فى الوجود بالموت والهلاك، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. وهناك بعد ذلك، الجنة والنار، لِمَنْ كُتِبَ له - جزاء عمله - أن يكون سعيداً أو أن يكون شقيًا. وهذا كله، مرتبط بحُرِّية الإرادة فى الأفعال. فكل ما يحدث من الإنسان، فى حياته الدنيا، بإرادته، واختياره .. وهو فى كامل وَعْيِه ويقظته، فهو من كَسْبِه، وهو مُحاسَبٌ عليه يوم البعث.

وإذا ذهبنا لنحفر وراء تلك النقطعة؛ فإننا نجد أن الله سبحانه، قد أعطى الإنسان، أكبر جزء من العقل .. أعطاه لأىٍّ من مخلوقاته، وأعطاه جزءاً من الحياة

obeikandi.com

الراقية. وهذه العطاءات كلها، من فَيْض الله، ولهذا كان هذا المخلوق – الإنسان – مُتمتِّعًا بميزات، ليست لأى مخلوق آخر. قال تعالى: ﴿ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠]

ومن خلال عمل الإنسان الحرّ إذًا، يظهر منه، ما هو خيِّر وما شرِّير. ومن هنا يكون فلانًا من أهل الجنة، وآخر من أهل النار، بناءً على ما تَجمَّع له من أعماله .. خلال فترة حياته كلها .. من الخير أو من الشر؛ والتى تكون معلومَةً لدى الله سبحانه وتعالى، بعلمه الأزلىِّ السابق. ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾ [القمر: ٥٣]

فكل هذا .. قد سَبَقَ به علمه سبحانه، وهو مُدوَّن باللوح المحفوظ، فى الملأ الأعلى، لذا فقد قال الله تعالى، لرسوله نوح عليه السلام، عندما طلب منه أن يُنجِّى ابنه من الغرق؛ أن ابنه هذا «عمل غير صالح». وهذا يعنى أن مجموع أعماله فى الدنيا، كانت غير صالحة، وأن مصيره هو العذاب، وأن الله كان يعلم ذلك منذ الأزل.

إذًا .. فنتيجة هذه الحرية فى العمل الإنسانى، يكون هناك الحساب الذى يفصل فى تلك الأعمال، ويضع كل إنسان فى مكانه الذى يعلمه الله. وليس علم الله بسالب للعمل، – كما سبق ذكره، أو مُلْزِمٌ بأى عمل. فهو علم أزلى محيط، لأعمال الإنسان الحرة.

وهناك نقطة أخرى، أُريدُ فيها أن أُفرِّق بين «الخَلْق» أى خَلْق الله للأفعال الإنسانية. ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ .. بما فيها من خير أو شر؛ وبين الإرادة الإنسانية التى تُنفِّذ وتُحقِّق وتتصرَّف بحرية، فى هذه الأشياء المخلوقة، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ **الله خالق كل شئ** ﴾ فالله خالق الأعمال .. ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ فكما أن الله سبحانه وتعالى، خَلَق أشياء كثيرة، وسخَّرَها للإنسان، يستخدمها فى خلال زمن حياته – كما جاء فى الكثير جدًّا من آيات القرآن الكريم؛ فكذلك خَلَقَ الله الأعمال نفسها كأعمال، والحوادث نفسها كحوادث

وحركة. خَلَقَ كل ذلك مُسخَّرًا للإنسان لكن بعد ذلك ينظر ويقيِّم ويحاسبُ .. هل يستخدم الإنسان هذه المخلوقات، أو هذه الموجودات .. أو هذه المُعْطيات، فى سبيل الخير أم فى سبيل الشر ..؟ .. هل سيختار الخيرَ منها أم الشرِّير ..؟.

وَلْنَضْرِب أمثلةً لبعض المخلوقات التى سَخَّرها الله سبحانه للإنسان .. ويستطيع الإنسان أن يستخدمها تارةً ليُقدِّم بها خيرًا، وتارةً أخرى ليقدم بها شرًّا؛ مثل مكونات القنبلة الذرية .. فهى من الممكن أن تُستَخدم فى السِّلْم، وفى الحروب .. فى إفادة البشر، أو فى الفَتْك بهم وتعذيبهم.

إذًا .. كل شئ مخلوق لله – بقضاء الله وقَدَرِه – ولا مناقشة فى هذا .. ومن ضمن هذه المخلوقات كما تقدم – الإرادة الإنسانية، التى من صميم صفاتها التى حَدَّدَها الله وقَدَّرَها؛ أن تختار بين الأفعال والأشياء. يترك الإنسان هذا .. ويأخذ ذاك؛ ويُحرِّك هذا بطريقة معينة، وآخر بطريقة أخرى. أى يستخدم الحركة التى وهبها الله له،، بإرادته، فالله سبحانه وتعالى قد تَركَ للإرادة الإنسانية فجوةً، لكى تتحرَّك فيها.

فهناك فُقَّعةٌ إراديَّةٌ صغيرة، هى إرادة الإنسان، داخل دائرة كبرى ليس لها حدود، هى إرادة الله. فإرادة الإنسان، تتحرك بحرية داخل هذا النطاق المحدود، الذى حدَّدَه الله لها. فالله سبحانه وتعالى، إرادته فاعلة فى كل الأحداث .. ﴿ **فعال لما يريد** ﴾؛ لكن مع ذلك .. ومع أنها هى التى خَلَقَتْ تلك الإرادة المحدودة الإنسانية، وقدَّرت وجودها؛ فإنها قَدَّرت كذلك أن تترك المجال لها، لتُحقِّق صفة الإرادة فى حدودها المقرَّرة لها من قِبلَ الله تعالى. وهنا نستطيع أن نقول مع القائلين .. من عامَّة المسلمين .. والسلف الصالحين؛ أنه لا فاعل إلا الله .. بهذا المفهوم الذى أصبح واضحًا تمامًا، دون غموض أو تَردُّد؛ وأنه لا تحدث طرفة عين ولا لفتة ناظر ولا أى شئ فى الوجود إلا بقضاء وقدر سابقَيْن من الله تعالى. فكل شئ عنده بمقدار وتقدير وقَدَر.

وأخيرًا نتحدث سريعًا عمَّا قيلَ من أفعال الشر، وخَلْق الله لها، بناء على القاعدة العامَّة؛ بأن الله خالق كل شئ. فمن حيث إن الله يخلق الشر .. فإن الله

سبحانه، إذا كان هو خالق كل شئ؛ فإنه يخلق الشرَّ كحَدَث .. لا كشَرّ؛ أما الذى يجعله شرًّا أو خَيْرًا فهو الإنسان. هو الذى يُوجِّه هذا الحَدَث أو هذا الشئ، الذى خلقه الله – كما تقدم – وسَخَّره للإنسان .. فيجعله إمَّا خيرًا وإمَّا شَرًّا.

وبناء على ذلك، فالأعمال الخيرة، والأعمال الشرِّيرة، هى نتيجةٌ لإرادة الإنسان الاختيارية الحرَّة. فالإرادة الخيرِّة تجعل من الأفعال والأحداث، والحركات والأشياء كلها .. أفعالاً خيِّرةً طيبة؛ أما الإرادة الشريرة، فهى تركِّبُ الأشياء والأحداث .. وتحركها نحو الشرّ، فتجعل منها أفعالاً شرِّيرة. لأن هذا من صفات الإرادة .. التى منحها الله إياها – التصرُّف فيما أمامها من أشياء – والله جَلَّ فى عُلاه، ينظر .. ماذا ستكون، نتيجة هذا التصرُّف من الإرادة.

ويُطْرَحُ هذا التساؤل على أبى حنيفة رضى الله عنه: «أيَقَعُ العصيان بمشيئة الله أم بمشيئة العَبْد ..؟ ويجيب أبو حنيفة بما أجاب به أعظم علماء عصره .. جعفر الصادق .. «وإنى أقول قولاً متوسطًا .. لا جَبْر، ولا تفويض ولا تسليط. والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون، ولا أراد منهم مالا يعلمون، ولا عاقَبَهُم بما لم يعملوا، ولا رَضِىَ لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم. والله يعلم بما نحن فيه ..» [1] وهذه هى نظرية الكسب تمامًا» [2]؛ كما أنها أيضا نظرية الحرية أو حرية الإرادة، التى يعلم الله فيها ما يعمله الإنسان بإرادته الحرَّة التى وهبها إيَّاه.

هذه لمحات حول مشكلة القضاء والقدر؛ لعلها تكون قد ألْقَتْ الضوء عليها؛ ولعلها تكون قد بَعَثَتْ فى النفس الإنسانية، الارتياح والطمأنينة، وزوَّدَتْ العقل الإنسانى بفكر واضح – يعرف طريقه إلى المصير، وجعلتنا نعرف كيف نحن مسيَّرين، وكيف ومتى نكون مُخيَّرين .. وفوق كل ذى علم عليم.

---

(١) الخط الموجود تحت هذه الجملة، وضعته لتأكيد المعنى المطلوب.

(٢) د. على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ص ٢٦٩ – ط ٤ – دار المعارف بمصر – سنة ١٩٦٦م.